عودي إليَّ

بقلم: ج. أ. كانث

كانت المرأتان البدينتان في إحدى عربات القطار الذاهب إلى وجهته تتشاجران وتختلفان فيما بينهما على بعض المقاعد التي ادعت كل منهما السبق إليها.. ولكنهما ما لبثتا أن تفاهمتا من جديد وجلستا جنباً إلى جنب تمضغان «اللبان» الهندي، وتثرثران بالأحاديث.. بينما راحت السيدة العجوز التي كانت تجلس خلفهما وتوجه إليهما العتاب كلما اختلفتا، ترقب في سكون سيدة شابة إلى جوارها تهدهد طفلها عساه يكف عن البكاء والصياح..

وقالت لها السيدة العجوز إن الطفل ربما كان يشكو ألمًاً في معدته أو في جسمه، ورفعت «نيرانجيني» – أم الطفل – رأسها لترد عليها.. لقد بدت حسناء فائقة الجمال، ذات عينين واسعتين، وأنف صغير، وملامح فاتنة.

– لا أدري يا أماه.. لقد حاولت جهدي أن أرضيه وأسليه، ولكن يبدو أنه لا يريد أن يكف عن البكاء. ولست أظن أنه جائع.

وحملت السيدة العجوز الطفل عن أمه ووجعلت تداعبه.. قربت وجهها من وجهه، ثم رفعت رأسها إلى الخلف لتثير انتباهه. وطفقت تتحدث أمامه بكلام لا معنى له لتحمله على الضحك. وكف الطفل عن الصياح، وأخذ ينظر إلى وجهها الغريب، ثم يبتسم بين الحين والحين

في سكون ورضا. لقد شاع الابتسام على شفتيه كما يستلل شعاع الشمس من فرجة في السحابة المكفهرة!.

وامتدت يد العجوز لتمسح دمعتين ترقرقتا في عينيها، بينما اشتد وجيب قلبها وهي تنظر إلى هذا الطفل الجميل الذي رأت فيه صورة مصغرة من وجه ابنها العزيز.. وبدأت تروي لمن حولها من الجالسات قصة ابنها، وهن يصغين إليها لا بدافع العطف عليها، بل لأنه لم يكن أمامهن شيء آخر يفعلنه أو يقطعن به الوقت.

كان ذلك الولد يومئذ هو ابنها الوحيد. وكانت قدكرست حياتها وجهدها للعناية به، ولكنه مات.. وكانت هي التي ساقته إلى الموت..! نعم.. لقد جرت ابنها العزيز الذيكان أغلى من الحياة ذاتها، جرته إلى الموت!.

لقد جاء إليها ذات يوم وذكر لها أنه يرغب في أن يتزوج بفتاة تدله بحبها، ولم توافق على رغبته لأنها أرادت له أن يتزوج ابنة صديق الأسرة.. بل أنها كانت قد اتفقت فعلاً مع الصديق الغني «جردهار» على خطبة ابنته.

ولكن الابن أصر على ألا يتزوج إلا الفتاة التي اختارها لنفسه.. والتي لم يحب سواها.. سواء أكانت أمه راضية عن هذا الاختيار أم غير راضية.. وما إن رأت الأم ذلك منه حتى اهتاجت مشاعرها وتملكها الغضب، فراحت تعنفه وتشتد في عذله، قائلة له: «أهكذا يكون موقفك

من صنيعي معك وفضلي عليك؟!». ولم تنتظر حتى يجيب، بل صاحت به أن أخرج من البيت أيها العاق!.

وخرج من البيت..

ذهب.. وبدأت هي تحس الندم والخطأ.. ومضت تنعي على نفسها ما صنعته، وما تسرعت به.. لقد شعرت أنها لم تكن محقة في إنكارها على ابنها ما هو من حقكل إنسان أن يتطلع إليه، وهو الزواج بمن يحب، فاكفأت تضرع إلى اله لاقدير أن يعيد إليها ابنها.. واستجاب الله دعاءها.. ولكن بعد فوات الأوان.. عاد إليها وحيدها لا سائراً على قدميه ولا حياً يرزق، بل محمولاً مسجى، قد فارقته الحياة إلى الأبد.. إن الصراع بين عاطفة الحب لفتاته وبين عاطفته نحو أمه قد أعماه عن طريقه، فانساق وهو في هذه الحال إلى عرض الطريق، أمام سيارة مسرعة، وقضى على الفور!.

من كان يتصور أن هذه المرأة العجوز الحدبة،كانت هي السبب في موت وليدها الحبيب، وفي شقاء فتاة محبة لم ترها ولم تعرف عنها شيئاً؟!.

وعاد الطفل وقد استطاب مداعبة المرأة له، يمد أنامله الدقيقة نحو أنفها لتدغدغها،، وينفجر ضاحكاً ضحكة طويلة.. وجذبته هي نحو صدرها وقبلته في خديه وهي تقول:

«حماه الله، ما أجمل عينيه!.. إنه يشبهك فيكل شيء.. إلا عينيه فإني أحسب أنهما لا تخصان إلا أباه!».

وأطرقت «نيرانجيني» تفكر.. أجل، إن للطفل عينين ساحرتين.. إنهما فعلاً كعيني أبيه.. عينيه اللتين جذبتهما وأثرتا فيها..

وانطلق فكرها إلى الماضي.. إلى تلك الأيام التي بدأت فيها العمل بمصانع «رويال ميلز» بعد وفاة والدها الذي لم يترك لها شيئاً.. ولم يقدر لها أن ترى حتى وجه أمها، فقد ماتت وهي تأتي بها إلى الحياة، ولم يقبل أحد أن يكفلها إذ أعتبرها الجميع نديدة الشيطان لأنها أهلكت حياة أمها.

وذكرت الأيام التي قضتها وحيدة شريدة.. حتى أصبحت في السن التي يهفو القلب فيها إلى الصحبة، والحب،، وإلى الرفيق والأنيس، وتمنت أن تصبح عبدة لأي قادم يطرق باب قلبها ويبدي لها ولو بعض الميل.. ترى هل يكتب لها أن تتحسس ذراعي إنسان قوي تطوقان خصرها، بينا هو يسكب في أذنيها ألفاظ الشعر المعسولة التي تنتظرها كل فتاة من فارس أحلامها؟ هل يقع لها ان تتذوق بشفتيها القبلات الدافئة الناعمة التي يتبادلها المحبون من الشبان والعذارى في الليالي المقمرات؟!.

ولم يطل بها التساؤل والحرمان، فقد هيأ لها القدر كل شيء.. وساق في طريقها «راهول» الذي أسرتها عيناه ووقعت في غرامه والهيام

به.. وشيئاً فشيئاً نما تعارفهما وتحول إلى رابطة قوية من العاطفة المتبادلة، واعتادا أن يتمشيا وقتاً طويلاً بعد ساعات العمل في المصنع، مترافقين متعاطفين.. وكانا أثناء الطريق يأخذان في أحاديث شتى، متنقلين من موضوع إلى آخر، وأكثرها لا أساس له ولا هدف يرمي إليه، كما هي عادة العشاق الذي يحاولون من الحياة مداراة عواطفهم بعابر الكلام..

ومع ذلك فقد كانت عيونهما تفسيركل حديث، وتكشف عما يعتمل في قلبيهما من وجد وهوى!.

وفي أمسية جميلة، كانكل شيء فيها يستحم بضوء القمر، ذهبا معاً يسيران في شعاب الطرق على مهل.. وقادها الفتى إلى منحدر على طرف الطريق، قد تغطى من الجانبين بالأشجار الطويلة، وكان هناك مقعد تحت الظل الضافي، والقمر يرسل شعاعه فلا ينفذ منه بين أوراق الشجر إلا مثل الذبالة الموقدة في ردهة رحبة.

وقال لها الشاب بما يشبه الهمس: «هل نجلس قليلاً فوق هذا المقعد؟». ولم تجب.. بللم تكن تدري من حولها شيئاً سوى حبها «لراهول» وأنها في صحبته وإلىجانبه.

وكان الصمت الذي يلفهما يبدو لهما،كأنه صمت لا ينتهي!.. وفجأة استثارت العاطفة فتاها فأخذها بين ذراعيه.. وقبلها، ثم همس في

أذنيها قائلاً وكأنه يعتذر: «أرجو أن تسامحيني. إني لم أقو على التحكم في عواطفي».

ودفعته عنها برفق وهي تطيل النظر إليه بعينين مشدودتين.. أما هو فقد ظل مطوقاً خصرها بذراعيه.. وفي سكون التصقت به، وطوقته.. إنه الحب!.

إذن هو الهوى.. لقد جاء أخيراً!.

وتلاقت الشفاه.. وتحركت الغمامة فحجبت وجه القمر، وظللت العاشقين وهما متكئان وحدهما... أو مع الحب والليل..

***

وظلا بعد ذلك يلتقيان سراً تحت ضوء القمر، ويقضيان أكبر شطر من الليل في المناجاة والقبل.. وكانت تطلق الآهات الحرى كلما ذكرت إحدى قصص الغرام التيكانا يرويانها، أو الأوقات الهانئة التيكانا يمضيانها. ولكن ذلك لم يدم طويلاً، فقد بدا القلق يأخذ طريقه إلى نفسيهما.. أن هناك قطرة من المرارة قد تسللت إلى الكأس التي حسباهاكأس السعادة. إنها توشك أن تأتي بطفل:

لقد أخبرت فتاها بذلك ذات يوم، وهي تستند إلى ذراعيه.. وكانت في سكرة الحب فلم تدرك مغزى ما ارتسم على وجهه من معان.. لقد

بدا مضطرباً تعقد لسانه دهشة المفاجأة، وراح يسألها في غباء عما إذاكانت لاتمزح فيما قالت!.

وراحت السكرة.. وأدرك أن الأمر جد لا دعابة فيه، فقربها نحوه وتمتم قائلاً لها: «لا عليك يا حبيبتي.. لا تهتمي بشيء، إن كل شيء سيكون على ما ترومين».. وجذبها أكثر من ذي قبل، وغمرها بقبلاته الحرى.. وهو يقول لها: «إننا سنتزوج بالطبع.. سأتزوج بك بمجرد أن أحصل على العلاوة في مرتبي.. وثقي يا عزيزتي أني لن أتخلى عنك.. لن أتخلى عنك».

– إني أعرف أنك لن تتركني يا حبيبي.. ولكن.. ولكن..

– ولكن ماذا يا صغيرتي؟.

– الجيران!.. إنهم سيتكلمون، سيتهامسون. سيختلقون الشائعات ويتناقلونها، والإشاعات هي التي يصدقها الناس أكثر من الحقائق ذاتها!..

– أعلم هذا.. إننا سنذهب إلى مكان آخر حيث لا يعرفنا أحد، ولا نجد من يهمس أو يرتسم سؤال على شفتيه.. أنت. وأنا.. سنصنع منزلاً لنا معاً، وعندما يحل الوقت المناسب سنتزوج.. وأنت منذ الآن لن تكوني في حاجة إلى العمل. إن أجري الذي أتقاضاه سيكون كافياً لي ولك. وفي خلال أشهر قليلة ستأتي العلاوة، ستأتي في الوقت الذي يأتي فيه الطارق الجديد.. فما رأيك؟!.

ولم تجد ما تقوله سوى أن تسأله هذا السؤال الساذج:

– أحقاً تحبني.. أجبني. أأنت واثق؟.

وأجابها:

– إنني واثق من حبي ثقتك بي يا عزيزتي.. ألم أبرهن على ذلك؟ إذا كان الرجل مزعزع الحب، فهل يتصرف هكذا؟ هل كان يقدم، غير متردد، على قرار كهذا؟.. إنه على العكس كان يتهرب منذ الوهلة الأولى التي تظهر فيها هذه التجربة. إنني أحبك.. هل تسمعينني؟ إنني أحبك.

وصدقته.. من كان يملك ألا يصدقه؟.. كانت كلماته ونبرات وصوته تحمل معها قوة الإقناع.. ومع ذلك، فها هي ذي الأيام تمضي، فيخيل إليها في فترات يأسها أو ضعفها إنه إنما يسخر منها أو يضحك لسذاجتها من وراء ظهرها!.

***

وانتقلا إلى مسكن جديد.. وكانت الرابطة التي تربطهما وهنا بحالة الرخاء إذا تيسرت لهما في هذه الظروف.. ولكن «العلاوة» التي انتظرا حلولها بعد شهر أو اثنين لم تأت.. وبدلاً من ذلك حان وقت مجيء الطفل. وجاءها الفتى وقال لها أن عليه أن يذهب إلى مكان ما لبعض الشئون العاجلة ويتغيب عنها بضعة أيام. ورفض أن يذكر لها السبب

قائلاً: إنه لا يريد أن يشغل رأسها الصغير، وأن الوقت لم يحن – على كل حال – ليذكر لها كل شيء.

وتعهد لها بأن يعود سريعاً.. أما هي فبعد لاى وتمنع أذنت له في الذهاب..كانت تتمنع لا لأنها لم تكن تقوى على فراقه فحسب، بل لأنها أيضاً قد خامرها شعور غامض بأنه قد لا يعود!..

وتحققت شكوكها وظنونها.. انتظرته طويلاً.. وترقبته يوماً بعد يوم دون أن يظهر أثر لوالد الوليد المنتظر.. وتحطم قلبها.. وجاء الطفل وقدمت لها صاحبة الدار مساعدتها وعونها.. وراحت «نيرانجيني» تفكركيف يكون الحال لو أن تلك السيدة لم تمد يد العون لها في وحدتها، في الوقت المناسب.. لقد أظهرت عطفها وقدمت خدمتها وهي تلعن «راهول» هذا الذي ترك أم طفله في الوقت الذي كانت تحتاج إليه فيه أكثر من أي وقت سواه.

ولاحظت «نيرانجيني» بعد ذلك أن الجارات قد أخذن يتهامسن كلما رأينها ويهززن رءوسهن.. وفي سرعة البرق انتشرت إشاعة تقول أن زوج «نيرانجيني» قد هجرها إلى امرأة أخرى.

وعلى مر الأيام لم تعد الأم المحزونة تحتمل ما تلوكه السنة السوء ولا ثرثرة النساء وعيونهن المتلصصة من خلف النوافذ.

واضطرت بعد قليل أن تخلع حليها الذهبية وتقدمها لصاحبة المنزل لتعوضها عن خدماتها وتسدد أجر شهرين قضتهما في المسكن..

وتمنعت السيدة في باديء الأمر، ولكن ما لبثت أن مدت يدها وأخذت ما قدمته لها.

وذهبت «نيرانجيني» بلا وعي إلى محطة السكة الحديدية. واشترت تذكرة إلى محطة ينتهي عندها القطار قبل أن يغير طريقه، وهي لا تعرف هذه المحطة ولا تلك البلد!.. إنها تريد أن تهرب من وجه هؤلاء اللواتي عرفنها وأسأن إلىكبريائها.. تريد أن تتناسى يعنيها أن تتحقق من المكان الذي تذهب إليه ما دامت ستبتعد عن الظلال والأشباح وتخلفها وراءها.. لم تكن لديها فكرة ترسمها للمستقبل ولكن ما حاجتها إلى كد الذهن إلى هذا الحد؟ لقد سلمت أمرها لربها وتركت له كل شيء.. وهو صانع القلوب، ومجمعها، ومحطمها أيضاً!.

لقد أحبت وحصلت على ما كانت تتوق إليه.. ثم لم يبق لها ما يذكرها بسعادتها الذاهبة إلا هذا الطفل وهذا القلب الذهبي الصغير، المعلق حول رقبتها، الذيكان «راهول» قد قدمه إليها، وكان يعتز به لأنه أخذه من أمه، من بين تحفها القديمة.

***

وفجأة أفاقت «نيرانجيني» من أحلامها على أثر قبضة من يد السيدة العجوز فوق كتفها، وراحت السيدة تحملق في وجهها، وفي صدرها.. وذعرت الشابة، أم الطفل، وسألت السيدة عما إذا كان قد حدث شيء، أو ارتكبت أمراً لا تقره، ورفعت السيدة يدها، وهزت

رأسها، وتحولت عنها ونظرت إلى بعيد. وتلاحقت بقية الرحلة والديوان ساكن بمن فيه، إلا من صوت أنفاس القطار واحتكاك العجلات بالقضبان!.

وعندما وقف القطار نزلت منه السيدة العجوز، وجاء دور «نيرانجيني» فنزلت هي الأخرى.. أن الناس في بعض الأحيان قد يأتون أعمالاً من غير قصد ولا استعداد سابق.. بل من غير أن يكون هناك مبرر معقول.. وهكذاكان شأن «نيرانجيني». لقد غادرت القطار وهي لا تعلم لماذا غادرته، ولا أين تذهب، وكانت السيدة العجوز تقف على الرصيف، وكأنها تنتظرها. وعندما رأتها صاحت قائلة: «أأنت هنا يا بنيتي؟ لم أكن أعلم أنك تعرفين هذا المكان.. أتراك ستزورين بعض أقاربك؟».

وتلجلجت «نيرانجيني» وقالت:

– لا يا أماه. أنا لا أعرف هذا المكان.. أنا.. أنا.. لقد جئت لأمكث مع عمتي. وسيلحق بي زوجي ههنا قريباً.

ولكن المرأة لم تمهلها، ولم تدعها.. بل طوقتها بذراعيها، وهي تقول والدموع في عينيها وصوتها تكاد تخنقه العبرات:

«لا يا بنيتي!.. بل أنت تنتمين إلى هذا المكان.. وإليَّ. لقد سمع الله دعائي، واستجاب أخيراً لرجائي. وبدلاً من الولد أعطاني ابنة.. إني أعرف كل شيء عنك.. أن هذه «الحلية» التي تلبسينها في رقبتك هي حليتي. هذا القلب الصغير أعرفه من بين المئات أمثاله. وقد عرفتك

وأدركت قصتك منذ اللحظة الأولى. تعالي معي يا بنيتي.. وعودي إليَّ، وهاتي لي حفيدي لأرى فيه صورة ولدي..».

مائة روبية فقط هي كل ما قدمه.. مع أنه كان مستعداً لأن يقدم الآلاف، لكي يمحو الدليل الوحيد على إدانته!...